قسم الأبحاث | 2018-09-02

# مفهوم الله في وعي الطّفل...
# من واقع الموروث الشعبيّ

د. إيمان النمر
كاتبة وباحثة مصريّة

جميع الحقوق محفوظة © 2018
www.hafryat.com

## مدخل

في الفتوى (رقم 111939), باب المناهي اللفظية, كان السؤال: «هل يجوز القول إنّ الأطفال أحباب الله؟», فأجاب الشيخ بالنفي؛ لأنّه لم يرد به نصّ من الكتاب أو السنّة, أو قول لأحد السلف, واستدل على صحّة فتواه بالحديث النبوي: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة, فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه», ثم دعم رأيه بقصة قتل الخضر للغلام الكافر, كما ورد في الآية (80) من سورة الكهف: {وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا}[1], لكن ألا يتعارض حكم قتل الغلام مع هذا الحديث النبويّ الذي يشهد أنّ مسألة العقيدة هي إرث الآباء المقدَّس؟! إذاً, فلماذا يُحاسب المرء على ما لا يختاره بكامل إرادته ووعيه؟

في المجتمعات البشرية, التي يشكل فيها الدين مركزية بناء الثقافة والمفاهيم, وتقييم السلوك الفردي, تبدأ قصة إطعام روح الإنسان بالإيمان, منذ صرخات الميلاد الأولى؛ لأنّه يظلّ موصولاً بمشيمة الحياة الكبرى بتاريخها, وديمومة حضور لحظة انطلاقها من الانفصال الإلهي/ البشري, عقب وقوع آدم وزوجته في الخطيئة, فيما يمثل ميلاد الإنسان إعادة القصة, التي يرث فيها عذابات جماعته, وخوفهم, وقلقهم الوجودي.

إنّ الموروث الشعبي يحتفي بالطفل, تمجيداً لفكرة الخلود الجمعي واستمرارية النماء؛ كما تُزرع الأرض وتزهو بثمارها وعمارها, وهو ما يبرر الوجود البشري ويعطيه المعنى, وكفرصة جديدة للتكفير عن الذنب الموصول, والرغبة الممتدة في الخلاص بالعودة إلى جنة الإله, بالانتصار على الشيطان وجنوده من القوى اللامرئية الشريرة, التي أوقعته في الإثم, وما تزال, فلا عجب من حرص المسلمين مثلاً على النداء بالآذان والتكبير والصلاة في أذن الطفل بعد ميلاده[2], ثم استحباب ترديد الاستعاذة من الشيطان, وقراءة بعض الآيات والسور القرآنية, والتسمية عليه بذكر الله عند وقوعه على الأرض, لئلّا يمسّه الجنّ الساكن تحتها بسوء.

---

1-fatwa.islamweb.net

2- أبو داود, حديث رقم (5105), والترمذي (1514), والبيهقي في شعب الإيمان, حديث رقم (8620).

ينمو الإنسان وفق موروثه, وبداخله يتصارع بين الله والشيطان بالقوة نفسها, ويصبح الدين هو المصدر الوحيد والمعتمد لتشكيل منظومته الأخلاقية والقيمية, بسند واحد مقدَّس, ويتعلّم أنّ وجوده مرهون بعبادة الله, وكلّ ما دون ذلك لا يُعوَّل عليه, وفق نصّ الإسلام التأسيسي: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} [الذاريات: الآية (57)].

وفي ظلّ تدنّي مستويات الدخل المعيشي والتعليم والصحة, يحضر الدين بكثافة لمجابهة الواقع المرير, وإخفاقات الحياة, ومواجهة الصعوبات التربوية, والأسئلة المنطقية العسيرة التي تخصّ الذات والآخر, ووجود الله كفكرة مجردة مُستدخلة لوعي الطفل المحدود مبكراً, مقتحمة سيروراته الداخلية المعقدة, دون فهم أو استيعاب حقيقي صادق, يوازي حماسة الدفاع عنه حين ينضج.

فالصغيرة, التي تقف في فناء المنزل, وتترأس صفّ أقرانها في لعبة, تأمر فيها بأن من يحبّ الله يرفع يده, والمخالف سيُعاقب[3]! كيف تعرّفت, ابنة الأربعة أعوام هذه, على الله وما يمثله من قوى غيبية وقوة جزائية؟! كيف تسلّل الكوني اللامرئي واللامحدود إلى عقلها, الذي لم يدرك أكثر ممّا تحدّده لها عتبة منزلها وشارعها وبعض الحلوى والقصص والأغنيات, ومثل هذه اللعبة التي تمارسها, وكيف أوجبت محبة الله معياراً لاستحقاق الرضا والانضمام إلى المجموع ونبذ من يخالفه؟ كيف انقسم العالم في ذهنها, بكل محتوياته, إلى نقيضين متخاصمين؟

## مراحل تكوين الطفل للمفاهيم

بالرجوع إلى أهم النظريات التي اهتمت بدراسة مراحل تطور المعرفة, وطبيعة تكوين المفاهيم لدى الطفل, وأبرزها نظرية جان بياجيه (1896-1980), يتّضح أنّ الطفل يمرّ بأربعة مراحل رئيسة؛ فمنذ ميلاده, حتى بلوغه العامين, تكون كلّ أفعاله وتحركاته مجرد انعكاسات وراثية, وتكيّف كلّي, كاستجابات للمثيرات الخارجية المحيطة به[4], وحتى سنّ الرابعة, وهو عمر طفلتنا المشار إليها سابقاً,

---

3- مشاهدة ميدانية, بتاريخ 21/ 1/ 2018.

4– موريس شربل: التطور المعرفي عند جان بياجيه، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ط 1، بيروت، 1986، ص 111.

يكون الطفل في مرحلة ما قبل المفهومية, أي عدم القدرة على صياغة المفاهيم, وإجراء عمليات الاستقراء والاستنتاج, إنما يعتمد على المحاكاة والتقليد, كما يتميز بالفكر الإحيائي؛ أي معاملة العالم الخارجي المحيط به, بما في ذلك الجمادات, على أنه عالم حيّ يفكّر ويشعر مثله, وقد يتساءل الطفل في هذه المرحلة عن هويته الذاتية, أي من أنا؟! من أين أتيت؟! كيف خُلق العالم, لكن لا تنبع هذه الأسئلة في المجرد, إنّما لأنّها تحيط به, أي تشغل حيّزه الحسّي[5].

وبحسب تلك النظرية؛ الطفل حتى بلوغه العام السابع, لا يمكنه إدراك الواقع, إلا من خلال الحدس والإدراك السطحي الحسي لمحيطه الخارجي, حتى عامه الحادي عشر, بناء على الخبرة السابقة من استدخال الأفكار وتفاعلها مع استيهاماته الخاصة عن واقعه, وبعده يمكن إجراء العمليات الصورية, والقدرة على التعامل مع المفاهيم الشاملة, عن أمور مثل: الوزن والعدد والمساحة والمسافة والحرارة, شريطة وجود الدليل المادي, أما المفاهيم المتصلة بالحجم والكثافة والعدل والقسوة وغيرها, ما تزال مشوشة وغير واضحة الصياغة لديهم, ومنذ العام الثاني عشر, يمكن للطفل أن يحاكم فرضيات غياب الدليل المادي, ويُجري عقله العمليات الاستنتاجية, ومن ثمّ محاولة إدراك المفاهيم المجردة[6].

## فرض الإيمان بطاعة الوالدين

إذاً, إن افرضنا صحّة نظرية بياجيه؛ فالطفل حتى عامه الثاني عشر, لا يمتلك القدرة الذاتية على إدراك الله كمفهوم, وكإيمان مؤسَّس على الوعي به؛ بل لم يأتِ سؤاله عن الله من داخله أولاً, إنما فُرض عليه جبراً؛ بدايةً من ترسيخ التراث الشعبيّ, مدعوماً بالوصايا الإلهية لمفهوم طاعة الوالدين وتجريم عصيانهما, فطاعة الله من طاعتهما, وهما يلياه في تراتبية القداسة ووجوب تنفيذ الأمر, وعندما يشبّ الطفل وينضج, ويتمكّن من تحقّقه الذاتي؛ فذلك مردود إلى فضل دعاء والديه, وإحلال بركة طاعتهما, وفي ظلّ محدودية عقل وأدوات الطفل, مقارنة باتساع خياله

5- بورنو بتلهايم: التحليل النفسي للحكايات الشعبية، ترجمة: طلال حرب، دار المروج، بيروت، 1985، ص 71.

6- فاخر عاقل: نظرية بياجيه عن تكوين المفاهيم، مجلة العلوم الاجتماعية – الكويت، مجلد 4، عدد 2، يوليو 1976، ص ص 31-37.

المستجيب للمدلول الرمزي، يتم بواسطة الوالدين، كطرف موثوق فيه، وطاعته واجبة، تمرير الدين بكثافة كرسالة إلهية مقدّسة، وثوابت لا يمكن المساس بها، إلا أنّ الأسوأ من ذلك؛ هو التقليل المستمر من شأن قدراته الاستيعابية، وتجريده من ثقته الذاتية، وتبرير ذلك بأنّه صغير لا يفهم ولا يعي ما يعرفه الكبار، ورغم ذلك يصرّون على معرفة ما لا يفهمه ولا يعيه!

ومن الطاعة المقدّسة للوالدين، والثقة في عالم الكبار العقلاء، والخوف من العقاب، وانعدام الثقة الذاتية، يستسلم الطفل لإرادة العقل الجمعي، وحينما يوجه أسئلته الخاصة بمنطقه الحسّي عن هيئة الله المادية، التي غالباً ما تأخذ سمات الهيئة البشرية في تصوّره الذهني غير المنطوق، ومكانه، وكيفية خلقه العالم، يُواجه بكلمات من نوعية: «حرام»، و«عيب»، أو طريقة التسويف في معرفة الإجابة؛ إذ تصبح الجملة المشهورة في الثقافة الشعبية (لما تكبر هتعرف) حجة نجاة، كما يبدأ التخويف بعذاب الله، وجهنم الكافرين الذين يسألون عنه أسئلة معيبة.

وفي أحيان أخرى، ربما أفضل حالاً؛ تكون الإجابة إما منقوصة أو خادعة، وغير قادرة على إقناعه، ليظلّ السؤال عالقاً في العقل دون إجابة، ربما على مدار العمر بأكمله، أو أن يُواجه بردع التحريم أو التكفير، وتكتمل المأساة عندما يتحدث الطفل إلى الله بمناجاة أو دعوة ارتجالية عفوية، بحسب مفهومه الخاص الذي استطاع أن يكونه، فإمّا أن يزجره الكبار، ويعلموه أدب الحديث البشري/ الإلهي، أو يسخرون منه وكأنه يلقي فكاهة، ويحسبونها إحدى نوادره، وبذلك تُقتل العلاقة الوجدانية الحرّة الخاصة بين الفرد والإله.

وقد زخر الموروث الشعبي، بمختلف أشكاله التعبيرية، من الأغاني والقصص والألعاب والألغاز (الفوازير)، بالمدلولات الضمنية أو المباشرة التي توجه إيمان الطفل بإلهه، وتشكل صورته بحسب دين والديه المعتنق، ولنبدأ بالأغنية:

## أوّلاً: أغاني الطّفل الشعبيّة

تمثّل الأغنية الشعبية اللبنة الأولى في بناء ثقافة الطفل وتشكيل وجدانه، وهي قصيدة شعرية ملحنة مجهولة الأصل، كانت تشيع بين الأميين في الأزمنة

الماضية, وجرى تناقلها من جيل إلى آخر, شفاهة دون تدوين؛ إذ إنّها تنتسب إلى ذاكرة العقل الجمعي, ولا تخضع لمعايير النص المُدّون وحقوق ملكيته[7].

وقد تنوعت أنماط أغنية الطفل, بتعدد واختلاف دورها الخاص بعالمه؛ فتوجد المقطوعات اللحنية القصيرة, التي تشبه الترانيم العفوية المتوارثة من الجدات والأمهات, بهدف هدهدة الطفل عند النوم: «نام نام وأدبحلك جوزين حمام», أغنية هدهدة مشهورة, تمررها المرأة إلى وجدان طفلها, دون أن تدرك أنها مختصر قصة القربان الإلهي, كما جاء في الشريعة الإبراهيمية الأم (التوراة), حين كان يُستوجب تقديم يمامتين, أو فرخي حمام, للهيكل, للتكفير عن الخطيئة أمام الربّ, والتطهّر من الدنس بعد النفاس والطمث[8].

كما ابتكر التراث الشعبي أغاني المداعبة والترقيص والتدريب على المشي, مثل: «تاتا تاتا خطي العتبة», أو للتحفيز الذاتي, ولم تضم تلك الأغنيات أيّة مادة دينية موجهة بشكل مباشر, أو ضمني, سوى الدعاء الطيب العفوي إلى الله, بحفظ المولود ومباركة عمره[9].

أما في المناسبات الدينية, مثل شهر رمضان والحجّ والعيدين وخلافه, تتخلل بعض أغاني الأطفال التراكيب اللغوية المرحة, التي تفتح مداركهم على مسميات الفروض, التي تشكل سُبل التواصل البشري/ الإلهي بشكل ضمني؛ كالصلاة والصوم والحج, مثل أغنية: «رمضان كريم يا حاللو», التي يُذّكر فيها الطفل والدته بصلاة العصر, وفي «ماما بتخبز كحك العيد», يُغني للأب الذي سيصلي العيد, وفي «واحد اتنين سرجي مرجي», يغني «بدي أزورك يا نبي يلي بلادك بعيدة».

---

7- أحمد مرسي: الأغنية الشعبية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، سلسلة المكتبة الثقافية، عدد 245، ديسمبر 1970، ص ص10- 14.

8- الكتاب المقدس: سفر اللاويين (15- 29).

9- أحمد أبو سعد: أغاني ترقيص الأطفال عند العرب منذ الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي، دار العلم للملايين، ط 2، بيروت، 1982، ص. ص 19-20.

والأغنية الشعبية, مثلها مثل كلّ أنماط التعبير الإنساني القابل للتغيير والتعديل المستمر, وفق تطورات العقل الجمعي وتغير ثقافاته وقناعاته الحياتية بتنوعها, كما أنّها تتميز بالسلاسة والمرونة من حيث اللغة والصياغة واللحن, ومن ثمّ فهي سريعة الانتشار, وقابلة بسهولة للتحوير, وإعادة التدوير.

فمثلاً؛ نجد أنّ أغنية «سبوع المولود», المعروفة بـــ «حلقاتك برجالاتك», قد خضعت لتغيير جوهري ببنائها, شكلاً وموضوعاً؛ إذ إنّ نصّها الأصلي لم يضم أيّ مدلول ديني, سوى دعوة تصلح لأطفال الجميع: «يا رب يا ربنا تكبر وتبقى قدنا», إلا أنّها, وفي ظلّ تصاعد المدّ الديني السلفي, تحورت تماماً إلى مادة دينية مباشرة, تصلح للطفل المسلم فقط, وتُغنى له في حفلات السبوع الشعبية الحديثة, التي تحولت إلى «عقيقة», ومن فقراتها: «حلقاتك برجالاتك يلي جيت نورت الدار, هنشربك من إسلامنا, ونفطمك على قرآنا, وبشرع ربنا والسنّة, نجوزك وتجيب عمار, هنعلمك تقرا وتدرس كلام نزل على النبي في الغار, خد من عمر هيبته وعدله وبقوة الحق اشهد له, وغني لأبو بكر وفضله في كل ليل وفي كل نهار».

ولأنّ التراث الشعبي لا يمكنه التخلي دفعة واحدة عن محتواه ومدلوله؛ مُزجت الأغنية ببعض كلمات نصّها الأصلي, المرتبط بمظاهر السبوع التراثي القديم, الذي يتضمن رشّ الملح, وتعبئة الحمص والحلوى, ودقّ «الهاون», وهزّ الطفل في الغربال.

وفي نموذج تلك الأغنية؛ الله لم يعد يُستدخل إلى عقل الطفل على مهل, كقوى عليا رحيمة تحفظ أعمارنا جميعاً, دون تمييز ولا تأطير ولا تصنيف, ولم يعد معنى الإيمان الموجَّه للطفل ضمنياً مُبطناً, إنّما أصبح صريحاً ومعنوناً بمسمى ديني, وكتاب مقدس, ورسول وصحابة وتابعين, وشرع وسُنّة؛ أي فتح باب التمايز بين البشر على أساس المعيار الديني دون وعي.

## ثانياً: الحكاية الشعبيّة

يقول الكاتب الإنجليزي جي كيه شسترتون (1874-1936), كنموذج للتعبير عن مدى تأثير الحكاية الشعبية في وجدان الإنسان: «في مدرسة الأطفال التي تعلمت فيها القدر الأساسي من فلسفتي التي بها, أؤمن بيقين لا يتزعزع, ما آمنت به في ذلك الوقت, ولا أؤمن به اليوم, يسمى (الحكاية الشعبية)», أما الشاعر فردريك شيللر (1759-1805) فقال: «وجدت دائماً في الحكايات الشعبية, التي رووها لي في طفولتي, من المعاني العميقة, أكثر بكثير من كل الحقائق التي علمتني إياها الحياة».

والحكاية الشعبية[10]؛ هي نتاج العقل الجماعي, أدب الحياة النابع من خبراتهم الحياتية, وخلاصة تجاربهم الواقعية اليومية, كما أنها انعكاس لانفعالاتهم وأخيلتهم, ومعتقداتهم عبر الزمن الاجتماعي المتوارث, هي الحواديت السحرية التي كان يتعزى بها عامة الناس؛ لأخذ العبرة بانتصار قيمة الخير على الشرّ, وضرورة الصبر على الشدائد والمكائد, هي قصص السلوى, والتنفيس عن الرغبات الإنسانية المكبوتة, «حواديت» قبل النوم, التي كانت تلقيها الأمهات والجدات على مسامع الأبناء والأحفاد, محلّقين معها خارج الازمان واللامكان.

وبحسب برونو بتلهايم (1903-1990)؛ فإنّ الحكاية الشعبية, لديها قدرة مبهرة في إغناء حياة الطفل الداخلية, ومخاطبة الضغوط الداخلية العنيفة, بشكل يتيح له تسجيلها في اللاوعي, كما أنّها تساعده على إدراك قيمته الذاتية وواجباته الأخلاقية, من خلال فهم ما يمرّ في عقله الواعي عبر اللاشعور[11].

وتنحدر معظم قصص الأطفال الشعبية من الأدب الشعبي, مثل: ألف ليلة وليلة, وكليلة ودمنة, وسير وملاحم الأبطال الشعبيين, وأولياء الله الصالحين, وأخيراً؛ قصص التراث الديني التوراتي والإسلامي, وعبر الحكاية يتجسد العالم الخارجي بكافة إشكالياته, في عقل وتصورات الطفل, ومنه يستمدّ صورته الذاتية التي يريد أن يشبّ

10- للاطلاع على مئات الحكايات الشعبية الثرية من كافة أنحاء العالم العربي، انظر: أحمد زياد محبك: حكايات شعبية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999.

11- برونو بتلهايم: مرجع سابق، ص ص 25- 26.

عليها, اقتداءً بالأبطال المروي عنهم, سيما الذين يقف الله بجانبهم انتصاراً لمعنى الخير, فيتجسّد في ذهنهم الله القوي المُعين المُخّلص ساعة الشدائد, وحين يستبد الضعف والخوف بالنفس البشرية.

«كان في قديم الزمان ملك, ولا ملك غير الله», حكمة استهلالية خبرية مكررة تشكل صورة الله قياساً على صورة الملك البشري في الحكاية, ومثلها: « كان يا ما كان, غير الله ما كان», لتعميق أزلية الله في وجدان الطفل, مقابل فناء كلّ زمن, «وكان يا ما كان يا سادة يا كرام, وما يحلا الكلام إلا بذكر النبي عليه الصلاة والسلام», شرط استهلالي أيضاً, يعمّق في وجدان الطفل شخصية النبي كوسيط بين الله والبشر العاديين, وربط ذهنيّ عتيد بين وجوب الصلاة على النبي, قبل البدء في عمل أيّ شيء, أو الرغبة في الحصول عليه, فكرة الموروث الشعبي نفسه, ألا وهي: وساطة الرسل والقديسين, وأولياء الله الصالحين, من أجل استجابة الله لدعائهم.

وفي الحكاية الشعبية, يتآلف الكون بأكمله, كوحدة وجودية متصلة رغم تناقضاتها, بما يناسب فكر الطفل الإحيائي, بما أنّها تعكس الوجود بعالميه, المرئي واللامرئي, الأرضي وما تحت الأرضي, من قوى الجنّ والشياطين الساحرة, ولذلك يفرد السرد الخيالي, الذي يحكم بنية الحكاية الموضوعية وعقدتها, مساحة كبيرة للعنف والتوحش؛ حيث يتصارع الخير والشرّ, بكل ما لديه من وسائل, فلا تخلو من مشاهد حسّية تفصيلية عن القتل والحرق والشوي بالنار.

ولذلك؛ تواجه الحكاية الشعبية العديد من الانتقادات, التي تُحّملها مسؤولية تطرف الإنسان, وتغذية ميوله نحو العنف, ما يمهّد لاتساع بؤرة الإرهاب والتطرف, ومن ثمَّ تقبل صورة الله السادي الانتقامي, ويردّ بتلهايم على تلك الانتقادات قائلاً: «أولئك الذين يحرّمون الحكايات الشعبية المألوفة, يقرّرون أنّه إذا كان ينبغي أن يوجد وحوش في القصص التي نرويها للأطفال, فيجب أن تقدَّم بشكل لطيف, لكنّهم ينسون أنّ الوحش الذي يعرفه الطفل جيداً, ويهمّه بالدرجة الأولى: هو الوحش الذي يشعر به في قرارة نفسه, أو الذي يخاف أن يُكتشف, والذي يعذبه أحياناً»[12].

12- المرجع نفسه: ص 159.

إذاً, ربما يكون الخيال العنيف مقبولاً, لتمكين الطفل من مواجهة مخاوفه, والإفصاح عن رغباته المكبوتة وميوله العنيفة الطبيعية, ثم إعطائه الأمل في التخلص من هذه المشاعر العدائية والسلبية, حين تُختتم الحكاية بانتصار قيمة الخير, كما يساعده في مواجهة الحياة الواقعية, عندما يدرك أنها ليست مثالية, غير أنّ تفريغ المشاعر المكبوتة, يساهم في نضج الشخصية البشرية بشكل صحيّ.

إنّ الحكاية الخيالية مفارقة بمجرد تجاوز الطفل لمراحل عمره المتوافقة معها, كما أنّه تدريجياً يدرك خياليتها واستحالة تطبيقها واقعياً, لكنّ إشكالية العنف تتعلق بالقصة الدينية المباشرة, لأنّها غير مفارقة, إنما مستمرة بتوجيه الفعل الاجتماعي. بمعنى آخر؛ إذا ضمّت القصة الدينية فعل العنف؛ فهي بذلك تعطي إشارة ضمنية للاشعور, بإجازة ارتكابه بغطاء من القداسة المطلقة.

وبحسب ما جاء في إحدى الدراسات, التي اهتمت بقصص الأطفال وقياس نوعية ميولهم المعرفية؛ فإنّ نسبة التلاميذ المهتمين بالقصص الدينية, خلال مراحل التعليم الأساسي, تفاوتت ما بين 22% إلى 19 %[13], ومن المؤسف أنّه لم يعد ثمّة حضور واقعيّ وفعّال لما يُطلق عليه «حدوتة قبل النوم», أو الحكاية الشفهية, التي من شأنها إقامة حوار وجداني مباشر ومفلتر, بين الطفل وأهله, في ظلّ الحياة العصرية السريعة, وطغيان ثقافة المشاهدة, التي كرستها وسائل الإعلام والتكنولوجيا الحديثة على تنوعها.

وقد تدينت العديد من الحكايات الشعبية في العقود الأخيرة, تأثراً بالمدّ الدينيّ السلفيّ, فأصبحت الحكاية دينية مباشرة, تدور حول الغزوات والفتوحات الإسلامية, وعذاب القبر والثعبان الأقرع, الذي يلتهم جثة المتوفَّى, وقصص نهاية العالم وخروج يأجوج ومأجوج, وجنود الشيطان الذين يغرون الإنسان بالمعصية, وجهنم التي سيخلد فيها الكافرون؛ حيث تنتهي القصة الدينية بحكم أزليّ, يعمّق إحساس الخوف من العذاب الإلهي السرمدي.

---

13- محمد حسن عبد الله: قصص الأطفال ومسرحهم، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، 2001، ص 66.

إنّ أطفال اليوم، في ظلّ توسّع دوائر معارفهم، وتغيّر وسائل التواصل البشري التقليدية، ومع زيادة معدلات الذكاء والوعي الفردي المبكر في عصر الفضاءات الإلكترونية المفتوحة، دون قدرة على الضبط أو التحجيم، لم يعد سؤالهم عن مدى صحة حكايات الأم «الغولة»، و«الثلاث معزات»، ولا حكايات «علي بابا والأربعين حرامي»، و«ليلى والذئب»، و«السندريلا والأمير»، وغيرها، إنما أصبحوا مثقلين بهموم وأسئلة لاهوتية مؤرقة لعقلهم ووجدانهم؛ جراء كثافة حضور الدين في أعوام عمرهم الأولى.

إحدى الأمهات تقول: إنّ «طفلها سألها: لماذا لم يخلق الله جميع البشر مؤمنين؟ لماذا اختار النبي وحده مؤمناً، وجعل الناس تتطاحن في الحروب بدعوى محاربة الكفر؟!»، طفل آخر في الصف الأول الابتدائي، أخبر أمه بأنه «يكره الله»، وحين سألته لماذا؟ قال: «لأنه يميت الذين نحبهم، ويملك ناراً كبيرة يحبس الناس فيها!»، أيضاً طفلة أخرى سمعت عن الله أنّه يحرق الذين يغضب منهم، فأصيبت بحالة اكتئاب شديد، وانتابتها الأحلام المرعبة لمدة يومين، ولم تهدأ سوى بتكذيب ما سمعته[14].

وفي إحدى المعاينات الميدانية، تخبرنا طفلة، تبلغ من العمر تسعة أعوام: أنّها «تعلمت من القصص الدينية التي يحكيها أبوها، ومادة التربية الدينية في التعليم النظامي؛ أنّ الله يعاقب الكافرين بسلخ جلودهم في نار جهنم، وبسؤالها: من الكافرون؟ قالت: الذين آذوا الرسول محمد، وعبدوا الأصنام، ولم يسمعوا كلام الله»، ثم أكملت حديثها: بأنّ الأموات الكافرين ينالهم عذاب القبر، ويقطّعهم الثعبان إرباً، بعد أن يحاسبهم ملك الموت، ووافقتها شقيقتها، ذات الثمانية أعوام، وبسؤالهما: أيهما أفضل؛ أن يعفو الله عن هؤلاء الكفار أم يعاقبهم؟ قالتا: إنّ «العقاب أفضل كي لا يعود الإنسان للذنب»، دون أن تدركا أنّ عقاب الله السرمدي لا عودة منه[15].

وكثيراً ما يسأل الأطفال عن مكان الله، وكيف خُلق؟ وفي تلك المسألة، كان الموروث الشعبي يرى أنّ الله كلّي الوجود والقدرة؛ إذ تمثّل عبارة «الله موجود في

14- حوار إجرائي، حول تأثير حكايات الأطفال التي تتضمن مشاهد العنف على وجدانهم ووعيهم، بتاريخ 21/ 1/ 2018.

15- معاينة ميدانية: محافظة البحيرة، بتاريخ 2/ 3/ 2018.

كلّ الوجود»، هذه الفلسفة الإيمانية التي تجعل الله قريباً من البشر، كروح كونية تشملهم بالمحبة والرعاية، إلّا أنّ هذه الرؤية انحصرت لصالح الرؤى الدينية الأصولية والنّصية، التي حددت صورة الله بشكل مادي محدود وسلطوي، مثل ملك يجلس على عرشه في السماء السابعة، ولا يمكن للبشر رؤيته إلا يوم القيامة، وهي الإجابة نفسها التي يتلقاها أطفال اليوم، ومن هنا تتجسد صورة الله المحجوب المتواري والمتعالي في وعيهم[16].

على الوجه الآخر؛ يحضر الشيطان كقوة أخرى محجوبة تحرّك نزعات البشر الشريرة؛ إذ تحكي إحدى الأمهات لأطفالها: أنّ الشياطين لديهم مملكة وجنود عظام، ينتشرون في القرية بين البيوت والحقول، وفي نهاية كلّ نهار يقومون بعمل ما يشبه التقارير الإخبارية، عن مدى نجاحهم في إيقاع أهل القرية في المعصية، وفي يوم ما، وجد الشيطان الأكبر أنّ جنوده أصابهم بعض الوخم، ولم يرضَ عن نتائج عملهم، فأمرهم أن يذهبوا للحقل صباحاً، ويفكّوا رباط حمار أحد الجيران، كي ينزل إلى الحقول ويفسد الزرع، ومن ثمَّ يتصارع أهل القرية، وبالفعل هذا ما حدث، وقتل الجار جاره في النهاية، لذلك مَن يسمع نهيق الحمار عليه أن يستعذ بالله من الشيطان[17].

ونظراً إلى هذا الحضور الشيطاني الكثيف، الموازي للحضور الإلهي؛ يفكر معظم الأطفال، الذين يسكنون بالريف والحواري والحزام الزراعي الصحراوي، ويبرّرون كافة ميولهم ورغباتهم نحو العنف؛ بأنها «وسوسة شيطان».

تقول طفلة التسعة أعوام: إنّها «دائماً ما تستعيذ من الشيطان، حين يكون لديها رغبة في إيذاء زميلتها في الصف المدرسي، وإنها تعلمت من أمها حفظ آية الكرسي، لقراءتها قبل النوم، للتحصّن من الشيطان والجنّ»، وعند سؤالها: هل تعلمين معنى الآيات القرآنية التي تحفظينها؟ أجابت بالنفي[18].

---

16- المصدر نفسه.

17- حوار ميداني: مركز دسوق، بتاريخ 4/ 3/ 2018.

18- معاينة ميدانية: محافظة البحيرة، بتاريخ 2/ 3/ 2018.

## دور الممارسات الشعبيّة اليوميّة في تكوين صورة الله في وعي الطّفل

تحمل الممارسات الشعبية اليومية, في الوقت الراهن, كمّاً هائلاً من الرسائل المباشرة والمُبطنة في تعميق صورة الله, الرقيب على أعمال البشر, ورغم أنّ لله تسعة وتسعين اسماً تدلّ على صفاته, بحسب التراث الديني الإسلامي, إلّا أنّ اسمه «الرقيب» يستحوذ على العقل الجمعي بشكل كبير, فيتعلم الطفل أن يجيد عمله لمجرد خوفه من مراقبة الله له, وأولئك الملائكة الكتبة الذين يسكنون على كتفيه, يحصون حسناته وسيئاته, ويدوّنونها في دفتر حسابه الذي سيتسلمه يوم القيامة.

نسأل الصغير: لماذا تفعل الخير وتحبّ الله؟ يقول: «كي أنجح في المدرسة, وكي يعطيني حسنات كثيرة», ومن هنا «تتشيّىء» المنظومة القيمية في وعي الطفل, فلا يقيّم معياريته الحياتية على أساس معنوي (خير/ وشرّ), إنّما مادّي يوزن بعدد الحسنات والسيئات[19].

الله الرزاق؛ هو الاسم الثاني الأكثر استحواذاً على عقل الطفل, فيتعلم أنّ الدعاء والصلاة من أجل أن يرزق الله الإنسان بالنجاح في حياته, ويحافظ على نعمة وجود الأحباء والمال والصحة, وعلى هذا النحو تنشأ علاقة التواصل البشري الإلهي في إطار مفرط الحسية؛ إذ تصبح محبة الله مشروطة بعطائه, كحال محبة البشر لبعضهم.

ومن الممارسات اليومية؛ اصطحاب الأطفال إلى دور العبادة, وفيها يستمع إلى العظة الدينية التي لا تناسبه, ويحظى الطفل بالتحفيز وافتخار الأهل, إذا أدّى الصلاة عن طريق المحاكاة لا الفهم؛ حيث يؤمر الطفل بالصلاة, ويُجبر عليها, بل وتجب معاقبته بالضرب في حال امتناعه عنها, وفق الحديث المنسوب للنبي: «مُرُوا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع, واضربوهم عليها وهم أبناء عشر, وفرقوا بينهم في المضاجع»[20], فلا عجب أن يحكي أحدهم أنّ أبيه كان يجبره يومياً على الاستيقاظ من النوم ساعة الفجر, بإلقاء الثلج عليه في ليالي الشتاء القارس لأداء الصلاة, ولا

---

19- معاينة ميدانية: محافظة البحيرة، بتاريخ 2/ 3/ 2018.

20- رواه أبو داود، برقم (495)، وأحمد برقم (6650)، وصحّحه الألباني في الإرواء برقم (247).

عجب بهذا المنطق أن يتطرف الإنسان في دفاعه عن الله, وعبادته تحت تأثير سلطة الخوف والكبت.

وفي موسم ديني مثل الحج؛ يُذبح الحيوان أمام الطفل, بل ويتعلم أن يضع كفيه في الدم المسفوح, ويلون به جدران المنزل للمباهاة, وفي ذلك ما يجرده من رحمانيته وبراءته الطفولية, سيما أنّ فكره الإحيائي يتعامل مع الحيوان والجمادات على أنّها مثل البشر تشعر وتتألم وتتحدث, غير أنّنا لا نفهم لغتها, فلا محلّ للدهشة من رؤية متطرف يقدّم أخاه الإنسان فداءً لله, وهو في حالة زهوّ.

سيما أنّ الطفل يتعلم من الموروث الشعبي والديني؛ أنّ بعض الطيور والحيوانات والحشرات لديها القدرة على الحديث وحرية الفعل؛ بل ويحكمها نسق معيار الإيمان الإلهي الخاص بالبشر, فمثلاً: الهدهد يجب احترامه, ويُحرم ذبحه, لأنّه أخبر الملك سليمان ودلّه على مملكة سبأ, على عكس البرص الذي ساهم في إشعال النار التي أُلقي فيها النبي إبراهيم, ويؤجَر بالثواب من يقتله. أما الضفدع؛ فكان من المنقذين, والديك في البيت خير؛ لأنّ صياحه ترديد لذكر الله والشهادتين, وهكذا.

وفي المناطق الشعبية, التي ما تزال تجري فيها عمليات ختان الإناث, يظلّ المشهد الدموي كامناً في وعيهنّ باسم الدين والأمر الإلهي؛ خاصة أنهنّ يخضعن لتلك العمليات, وهُنّ في عمر عقليّ يدركن فيه معنى الألم, جراء انتهاك الذات.

كما أنّ المناطق التي تتميز بالتعددية الدينية, وقصور إدراك الطفل الذي يؤهله لفهم المسائل العقائدية المعقدة التي تفرق بين البشر, يتعلم الأطفال كيفية التمايز فيما بينهم, على أساس الاختلافات الظاهرة الحسية, مثلاً: الطفلة المسيحية سيئة, وسيعذبها الله لأنّها وصلت سنّ البلوغ وما تزال ترتدي الزيّ القصير, ولا تضع حجاباً على شعرها. والطفل المسيحيّ يُعرف من رائحة بدنه الكريهة, وسمات وجهه المختلفة عن المسلمين؛ بل تظلّ حصة التربية الدينية المدرسية, شاهداً على التمايز والانقسام بين البشر باسم الله, حين يُعزل الطفل المسيحي عن زميله المسلم, لاختلاف مسمّى إلههما ومفهومه.

ومن فراغ حيّز ثقافة العزل والخوف, تنشأ هوة سحيقة من الجهل والكراهية, وينمو اللاشعور المستتر, حتى يتحوّل في اللحظة الفارقة إلى فعل واعٍ مُدرَكٍ ومعلَن, وهكذا يتمايز البشر, ويصيرون أعداءً, وفق إرثهم من تعاليم الله, الذي كان يحبّهم دون تمييز حين كانوا أطفالاً.

hafryatnews

hafryatnews

hafryat news

hafryatnews

hafryatnews

hafryat news

All Rights Reserved © 2018

www.hafryat.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018